لم تكن ميالة لطروحات حرب الشعب والكفاح المسلح كطريق وحيد، بل كانت اميل الى الاعتماد على الجيش النظامي، زال التطابق في وجهات النظر الفلسطينية ـ السورية وان بقي بين الجانبين هامش مشترك يتسع او يضيق وفق تطورات الاحوال.

ومع ان منظمة التحرير مالت فيما يلي من سنوات (منذ ١٨٧٤) الى القبول بمبدأ التسوية. فإن هذا لم يجعلها اقرب كثيراً الى السياسة السورية، بل جعلها اقرب الى السياسة المصرية التي تميزت عن السورية، مع قبول الاثنين بمبدأ التسوية، بالمبادرات في هذا المجال، بينما انتهجت سوريا، القابلة لمبدأ التسوية، سياسة رفضوية فلم تقبل المشاريع المعروضة ولم تقدم مشروعها الخاص بها. وبين اعوام ١٩٧٠ و ١٩٧٤ وجدت في منظمة التحرير مدرسة على هذا الغرار السوري، تريد التسوية وترفض مشروعاتها ولا تقدم مشروعها الخاص؛ لكن التطور السياسي للمنظمة لم يلبث ان دفعها الى تخطي هذا الاسلوب، وخاصة بعد ان ذاقت ثمرات الجهد السياسي الايجابي منذ اقرار برنامج النقاط العشر. وهذا بالذات شكل الخطوة الثانية في انفراط التطابق السوري ـ الفلسطيني وفتح الابواب امام نوع خفّي من المنافسة والتنابذ، لم يلبث ان انفجر علنا في الصدامات التي وقعت عام ١٩٧٦.

ومنذ ذلك العام والعلاقات الفلسطينية ـ السورية تسير على مضض، ولو لم يمض الرئيس المصري انور السادات بعيداً في استرضاء الغرب على حساب المطالب العربية فيجد السوريين والفلسطينيين انفسهم مضطرين للتعاون ضد سياسته، لانفرط عقد التعاون باقصى مما حدث فيما بعد.

وهكذا، ظلت الظروف تفرض التحالف، فيما تقود دواعي التنابذ الى الازمات. وفي سياق ذلك، راح نهجان مختلفان يتمايزان: نهج البراغماتية الفلسطينية المتسلحة بالخبرة والذكاء والمرونة ازاء المتبدلات، ونهج الجمود السوري المزمن المتسلح بمقولات ثابتة لا تقيم كبير وزن للتبدلات، وان كان هذا النهج لم يفتقر في اي وقت من الاوقات الى الذكاء والبراجماتية الكافيين لجني المنافع العاجلة.

وكان الامر سيظل على ما هو عليه، بعد الخروج من بيروت، في تناوب فترات التأزم والتعاون بين الجانبين الفلسطيني والسوري، لو لم يقع التمرد الذي اعلنه، بمعونة سوريا الواضحة، عدد من قادة «فتح» وكوادرها. لقد جلب هذا التمرد للقيادة السورية ورقة ظنت انها بامتلاكها قد امتلكت، آخر الامر، الفرصة المواتية لتصفية الحسابات المتراكمة مع قيادة منظمة التحرير ولاستيفاء كافة المطالب التي تتطابق مع سياستها. ومع صعود حملة المتمردين، بحفز وعون سوري واضحين، صعدت القيادة السورية مطالبها موصلة الامور الى حد القطيعة، ثم الصدام.

ومنذ اعلان التمرد، حتى الآن، لم تترك القيادة السورية وسيلة الا اتبعتها لجعل المتمردين ومن جمعهم النفوذ السوري لتأييدهم، بديلاً لقيادة منظمة التحرير الشرعية. لكن بدا لكل ذي عينين ان النافخين كانوا ينفخون في قربة مملوءة بالثقوب، وكلما اجهدوا انفسهم زيادة تضاءل حجم القربة وانفض السمّار.

والى ان يستوعب من يعنيهم الامر عظات الدرس، ستبقى الازمة قائمة. وقد تطول هذه الموجة من موجات التأزم المتعاقبة، او تقصر. والذي يعنينا قوله، هنا، ان التمرد الذي حفز على الجانب السوري الرغبة المزمنة في الاستحواذ على الورقة الفلسطينية، قد حفز على الجانب الفلسطيني ذلك النوع من الرفض المريض الذي سبق ان حفر قبره الاجماع الفلسطيني على برنامج النقاط العشر عام ١٩٧٤. لقد استعاد المتمردون لغة تخطاها الفكر السياسي الفلسطيني وهو يتقدم اكثر فاكثر نحو لغة العصر، وتخطاها، ايضا، العمل السياسي منذ انفرط عقد «جبهة القوى الفلسطينية الرافضة للحلول الاستسلامية» وحلها اصحابها بانفسهم.